القدس وغزّة .. تاريخ وحضارة (مشروع تعلم)

عايدة سالم

القدس وغزه تحت جبين القمر

مقولة بدل المقدمة:

عند ذكر التمر، يراودك مذاق إطلالة القدس الشهية. وعند ذكر الحناء، تفوح في الأفق رائحة عطر غزة. فما بين التمر والحناء كانت لنا تجربة، وما بين الصورة والحكاية عشنا تفاصيلها.

لم تكن فكرة التجربة قد راودتني، و لم أكن بصدد العمل عبر المشروع، ربما هي الرغبة في التعلم أولاً، والرغبة في عمل مختلف ثانياً، ما دفعني لخوض هذه التجربة ضمن برنامج التكون المهني في مركز القطّان للبحث والتطوير التربوي/مؤسسة عبد المحسن القطّان؛ تجربة شكلت بالنسبة لي مساراً قادني بهذا الاتجاه.

للتعلم عبر المشروع مكرمات كثيرة، منها العيش بعيون بحثية؛ عيون متألقة دوماً متسائلة تعيد اكتشاف ما كان عادياً ليظهر المألوف على شكل تفاصيل مدهشة. الدهشة في مثل هذا النوع من العمل، لا تكون (تلك البداية) فقط، بل هي شكل دائم من الانخراط، هذا ما اكتسبته الطالبات الباحثات وبقي يلازمهن طوال الوقت، فكان لهن مساحتهن للتجربة، ورؤية ومعايشة الحياة في القدس «بعيون بحثية»، الأمر الذي شكل بالنسبة لهن إطاراً ذهنياً وروحياً جديداً بالمكان. ما أن تذهب إحداهن إلى البلدة القديمة، حتى تصبح باحثة دون أن تقرر ذلك، ولكنها تتصرف من تلقاء نفسها على هذا النحو.

فإحدى الباحثات أثناء ذهابها إلى السوق داخل البلدة القديمة لشراء ملابس، توقفت مع إحدى البائعات المتجولات على درج القدس، وتحدثت إليها مطولاً حين أخبرتها البائعة أنها تخرج من بيتها الساعة الرابعة صباحاً، وتصل القدس الساعة العاشرة، ما يتسبب أحياناً بتلف جزء من المحصول الذي تأتي لبيعة، وأحياناً تقوم شرطة الاحتلال بمصادرته منها. وحين سألتها الباحثة لم لا

تقومين ببيعه بالضفة؟ ما الذي يدفعك للقدوم وتحمّل المعاناة والمشقة؟

أجابت البائعة بكلمات بسيطة وعميقة: «بكفي يما أن أفوت إلى القدس وأسمع صوت الأذان الذي تعودت عليه منذ ثلاثين عامًا». لم تكن السيدة تأتي بحثاً عن الرزق فقط، بل بحثاً عن السكينة بمكان يعج بالاحتلال!

مقدمة: الزمن المتجدد

ضمن سلسلة تجارب قام بها مركز القطّان للبحث والتطوير التربوي، كنت قد اطّلعت على عدد منها كان جاري العمل عليها في حينها، لم أكن أعلم بفكرة هذه المبادرة من قبل حتى أتتني فرصة المشاركة بها ضمن تجربة خاصة بمدرستي.

بدايةً من حكايتي مع التعليم التي لاحظت فيما بعد انعكاسها المباشر على مسار العمل، وعجزي عن تقبل مادة التاريخ كمادة تعلم في المدارس وفق منهاج الحفظ الغيبي، عمدت إلى المشاركة في المشروع بشيء له صلة بمادة التاريخ، دون أن أحدد أي نوع من الاتجاهات سأسلك، وما هي حاجة طلابي، وما أقتنيه بحقيبتي كمعلمة.

جميع الأمور كانت مبهمة بعض الشيء في بدايتها، فكل ما كان يشع بالضوء أمامي هو رغبتي في العمل على شيء يلامس مادة التاريخ.

إضاءة على المشروع

مشروع «الزمن المتجدد» يأتي ضمن سلسلة مشاريع يتم العمل عليها ضمن برنامج التكون المهني، بحيث يتم تطبيق مشروع «الزمن المتجدد» بين مدرستي راس العامود الشاملة الثانوية للبنات في القدس ومدرسة السيدة رقية في غزة، بإشراف من مركز القطّان للبحث والتطوير التربوي، والمتابعة المباشرة والداعمة من مالك الريماوي، مدير مسار اللغات والعلوم الاجتماعية في المركز، وعبد الكريم حسين، باحث ومنسق في مسار اللغات والعلوم الاجتماعية، اللذين ساندا ودعما خطى سير المشروع في كلتا المدرستين خطوةً بخطوة.

مشروع الزمن المتجدد

تم اختيار طالبات الصف العاشر للمشاركة في مشروع الزمن المتجدد؛ وهو مشروع يتحدث عن القدس وغزه، تاريخ وحضارة كل منهما ومكانتها، والصورة التي رسمت

بأعين طلابها: كيف يرونهما؟ كيف يرمزون إليهما؟ كيف يتحدثون عنها؟ ما الذي يعرفونه عن مدينتهم؟ وما الذي يرغبون في معرفته؟

فالهدف من هذا العمل هو التعريف بالتاريخ ومواكبة تفاصيله كافة، مروراً بالزمن المتجدد، وصولاً للزمن الحالي، بحيث يشكل مشروع تعليم تاريخ من إنتاج الطلاب وحاجتهم، ما عمل على بناء إستراتيجية تعليمية جديدة لديهم؛ فهم –عبر المشروع– جزء أساسي ومنتج في عملية التعلم، حيث تنوعت مشاركتهم ما بين الكتابة، والتصوير، وقراءة المراجع، والتفكير، والاقتراح، والمبادرة، وعمل المقابلات، وإعداد كتيبات صغيره، والتوثيق عبر الأفلام القصيرة، والبحث في العلاقة بين الأماكن والأشخاص والمتغيرات عبر الزمن، فما كانت تصل إليه الطالبات عبر المشروع، كن يرينه إنجازاً يستحق التوثيق، إضافة إلى جو التشوق طوال خطوات العمل بالمشروع، فهي التجربة الأولى لي ولهم في التعلم عبر المشروع.

للقدس ملامح هي البداية

في جلسة اعتيادية كانت الطالبات يشاهدن مجموعة صور في مجلة على حائط المدرسة حين اختلفن على تحديد أماكن التقاط بعض الصور بالبلدة القديمة. بقيت أراقب من بعيد ما يجري من اختلاف على بعض المعلومات والصور. لاحظت حينها أن عدداً لا بأس به من الطالبات يجهلن الكثير عن ملامح القدس وتاريخها، وكي لا أدّعي المعرفة المطلقة، فخلال تجربتي معهن اكتشفت أني أيضاً لم أكن أعي الكثير عن القدس. حينها، راودتني فكرة توظيف المشروع بهذا المسار، ولم لا فما بدا لي للوهلة الأولى هو عدم معرفة الطالبات الكافية بالقدس، من هنا كانت البداية ... .

توجهت للطالبات وبدأت أتفاعل معهن بالحوار حول القدس. كان الاختلاف بين معلومات الطالبات البسيطة يشكل خلافاً ملموساً ونزاعاً على امتلاك حق المعرفة، حينها بدأت بتوجيه الأسئلة للطالبات حول القدس والصور المعلقة على الحائط، وما تظن كل واحده منهن أنها تعرف عن القدس حتى اندمجت الطالبات بحلقة حوار متناغمة لم يكن مخططاً لها مسبقاً، ولكني كنت أسعى إلى إيصال الطالبات إليها. حينها، قمت بإخبار الطالبات أنه بإمكاننا أن نقوم بالبحث في تلك الصور والتوصل إلى معرفة حقيقية نتفق عليها جميعاً، ولم أطرح حتى اللحظة فكرة التعلم ضمن مشروع على الطالبات، فلم أكن أعلم بعد مدى جاهزيتهن للعمل على المشروع. كل ما تم الاتفاق عليه هو البحث في الصور، قمنا بتحديد موعد للقاء في يوم آخر بعد انتهاء الدوام المدرسي، على أن تحضر كل طالبة مجموعة صور من مراجع قديمة؛ كتب، مجلات، جرائد، والبحث حول خلفية الصورة.

بعد ثلاثة أيام، قمنا أنا والطالبات بإحضار مجموعة كبيرة من الصور للقدس، وبلدتها القديمة، وأسواقها، وأزقتها. تبادلت الطالبات الصور فيما بينهن، وتحدثن عنها وتعرفن إليها. كانت خطوة مفيدة للغاية، ومفتاحاً لأبواب كثيرة موصدة لم تكن الطالبات يعرفن شيئاً عنها، حيث كانت علامات الفرح بالإنجاز المتواضع تبدو على الطالبات حين بدأن في تثبيت الصور على لوحة كبيرة، مع وضع عنوان يعرف كل صورة. من هنا تحدثت مع الطالبات عن فكرة التعلم عبر المشروع، فما كان يبدو عليهن من السعادة والانخراط في العمل، كان دافعاً قوياً لطرح فكرة التعلم عبر المشروع عليهم والتفاوض للعمل عليه.

التفاوض مع الطالبات للتعلم عبر المشروع

القدس مدينة عريقة، لها مكانة دينية لدى الديانات الثلاث، ومكان حضاري وثقافي وفني لا نعلم عنه الكثير. ويمكننا البحث فيه والتعلم عنه والاستقصاء حوله والحديث عنه لأشخاص آخرين، ونقل صورة القدس لهم بعيوننا كما نراها نحن لا كما صُوّرت لنا ولهم.

هي فرصة للتعلم عن القدس عبر تاريخها والمتغيرات التي مرت بها، وتوثيق التجربة للآخرين، والحديث عنها وإيصال صورتها كما نراها ونصورها. تحمست الطالبات لفكرة التعلم عبر المشروع، وكيف سننتج ما نتعلمه عن التاريخ، وكيف سنوصله للآخر. بدأت بطرح بعض الأسئلة عليهم لأستقصي مدى إدراكهن وجاهزيتهن للانخراط في المشروع:

- فما هي أهمية البحث بتاريخ القدس بالنسبة لنا كأشخاص نعيش فيها؟
- هل مهم بالنسبة لنا عمل مشروع عن القدس؟
- ما هو دورنا في هذا المشروع؟ مع وجود عدد كبير من كتب التاريخ التي تتحدث عن القدس؟

» هل البحث في تاريخ مدن أخرى سيكون مجدياً أكثر؟
» ما الخطوات التي ينبغي علينا العمل عليها؟

بدأت أفكار الطالبات واقتراحاتهن تعكس رداً قوياً على التفاوض (نحن نريد أن نتعلم عبر تجربتنا) (نريد أن نرى القدس عن قرب ونعايشها أكثر ... كتب التاريخ لا تحكي مواقف عايشوها أجدادنا كما يرويها لسان حالهم ... بالتأكيد لدينا رغبة في التعرف على تاريخ مدن أخرى، ولكن بعد أن نتعرف لتاريخ مدينتنا أولاً ...).

جميعها كانت إجابات تدفعني نحو التقدم قدماً مع الطالبات، فتمسكهن بفكرة المشروع فور طرحها عليهن وإجاباتهن الواعية لما سنقدم عليه، كانت مؤشراً جيداً لخوض التجربة.

حينها قررنا أنا وطالباتي أن نتعرف على القدس؛ تلك الشقراء الجميلة التي نسكن بين ثنايا جبينها، ونستقي من عرق مسامها ولا نعرف عنها الكثير.

قمنا بتحديد موعد للقاء آخر، ولكن ما الذي سنقوم بعمله في المرة القادمة؟ ما هي الخطوة الأولى التي تقترحن البدء بها لنتعرف إلى القدس؟ وما هي المقترحات التي يمكن أن نعمل بها لاحقاً ضمن سلسلة مهام؟ زيارة بعض الأماكن بالقدس؟ مقابلة أشخاص وتجار ورجال دين؟ زيارة أماكن أثرية بالقدس؟ التقاط صور تتحدث عن القدس؟ الاستماع إلى حكايا كبار السن؟

الحكاية ... شكل آخر للتعلم

بدأت الطالبات بجمع الحكايا عن القدس من كبار السن؛ الجد، والجدة، والأعمام، والأقارب، وكل من حوى في جعبته ما يخبرنا به عن القدس تشاركنا جميعاً في هذه الحكايا.

حين ذكر أحد كبار السن، وهو من سكان منطقة راس العامود: «كان أبي يمتلك بيتاً في البلدة القديمة ورثة عن جدي الذي ورثه عن والده وأورثه إياه جده فهو بيتنا ورثناه عن جد الجد، بقينا فيه حتى العام 1981. جاء أحد اليهود برفقة الشرطة وتم أخذ البيت وطردنا بالقوة بحجة أن لديهم أوراقاً تثبت ملكيتهم للبيت. لكنها أوراق مزيفة، هم من زيفوها كي يحتلوا بيوتنا، فأنا لا أملك أوراق البيت، لأنه ورث قديم جداً عن أجدادي، ولكنهم ما أن يضعوا يدهم على شيء يأخذوه».

وفي قصة أخرى تروي شهادة الآباء والأجداد على حادثة حريق المسجد الأقصى، وتهاود سيارات الإطفاء في الحضور لإطفاء الحريق.

وأخرى تتحدث عن شكل القدس المعماري قديماً، وأبواب القدس وزقاقها وطريقة جلب البضائع لبيعها في القدس. وعن الطرق التي كانت تخلو من الحواجز والمعابر قديماً، فلم يكن يفصل القدس عن الضفة شيء كما هو الآن، وعن سهولة الذهاب إلى مصر عن طريق غزه دون حواجز، فالقدس كانت في نعيم ما وصفوه قبل الاحتلال.

بعض حكايا الأجداد كانت تتحدث عن بساطة الحياة في القدس، التي كانت تتمثل في ملابس النساء والرجال، وأغانيهم، وطقوسهم بالأعراس، والأحزان، وكيف كانت تقام قديماً. وفق ما استمعنا إليه من حكايا كبار السن، أدركنا أن التغير عبر الزمن المتجدد لم يكن جغرافياً فحسب، بل ثقافي فكري فني أيضاً. فمن تلك الحكايا،

استمعنا لما هو طريف كطريقة الزواج ومراسم العرس، وكيف يمنع العريس من رؤية العروس حتى يوم الزفاف، وكيف كان يضرب العريس أثناء حمام العرس، ومنها ما هو مؤلم، وغالباً ما كان سببها وشاح العادات والتقاليد، وما هو بطولي منها وما هو غريب. تناقلت المشاعر بيننا كشريان دم واحد يسري في أجسادنا جميعاً، حتى أصبحنا متعطشين لمعرفة المزيد.

توقف كان لا بد منه

بدأت فكرة التعمق في العمل تراودني، مع إدراكي أن لا علاقة لي بمادة التاريخ التي لم أتصالح معها يوماً، الأمر الذي تطرقت إلى ذكره سابقاً. ولكن هنا دافع التعلم لم يكن عبر مادة أو منهاج، بل هو تعلم متاح بالوسائل والسبل كافة.

بيدَ أن القلق لم يسأم مراودتي بين الحين والآخر، القلق من الإخفاق، القلق من الوصول إلى مرحلة لا أعلم كيف سأتابع بعدها، القلق من تراجع دافعية الطالبات للعمل، القلق من فشل المشروع، ولا أذكر عدد المرات التي توجهت بها لمركز القطان وإخبارهم بمخاوفي تجاه فشل المشروع، وكيف كانوا يقدمون لي النصائح والدعم، حتى أصبحت تلك المخاوف كلها بمثابة دافع قوي للاستمرار والمضي قدماً نحو الأمام بخطوات واثقة. بيد أننا نتعلم عبر المشرع، فكرت ملياً بالأمر ما الذي يتوجب عليَّ القيام به؟

وهل أنا هنا معلمة؟ هل لدي مادة للتعليم؟ أم أن الطالبات سيقمن بالبحث من أجل التعلم؟ إذا كانت الطالبات سيقمن بمهمة البحث عن المعرفة، إذن هن باحثات صغار.

للمسمى أثر ...

في اللقاء التالي قمت بمشاركة الطالبات بأفكاري وإخبارهم أنه في مشروعنا هذا نحن نبحث عن المعرفة معاً، فليس لدي ما أقوم بتلقينهم إياه، وأن ما يتوجب علينا، في كل مرحلة من مراحل المشروع، أن نقوم بتحديد مهمة لتحقيق غاية معينه وفق إستراتيجية محددة نقوم بالاتفاق عليها، وتتغير الإستراتيجية حسب كل مهمة، وبهذا سنتشارك في البحث عن المعرفة معاً، والتعلم معاً، بحيث تصبح كل مشاركة منكن باحثة صغيرة ضمن فريق بحث سنطلق عليه اسم «فريق الباحثات الصغار».

كان لوقع الاسم دافع قوي وتأثير جيد على عزيمة الباحثات الصغار، حيث قررت مجموعة الباحثات الصغار تخصيص وقت للمشروع والعمل بشكل منظم ضمن المشروع، وإطلاق تسمية على كل مهمة يقمن بها؛ بدءاً بالمهمة الأولى التي سمينها «القدس تاريخ وحضارة».

كما قامت الباحثات بتوزيع الأدوار والمهام فيما بينهن، وتحملن جزءاً كبيراً من مسؤولية المشروع، فالمسمى ساعد على تعزيز اهتمام الباحثات بالمشروع، ونقلهن من حدود الطالب المحصورة بمقعد الدراسة ومادة التعلم إلى مساحة البحث الواسعة والمتشعبة.

شكل المشروع

بدأت الارتباكات بالتلاشي شيئاً فشيئاً، فالمشروع الآن يتخذ شكله اللولبي منذ بدئه بالتلعثم الذي أحاط به وصولاً لتمكني من نقطة البداية، مروراً باصطحاب الباحثات لنقطة الانطلاق بالبحث عبر مسار كان يسوده الغموض، وصولاً إلى الانفتاح على المشروع وتبنيه من قبل الباحثات، تصاعداً بخطوات البحث عن المعرفة، حيث قمنا بتحديد موعد للقاء ثابت كل أسبوع، نتحدث فيه عن هذه الفكرة، وعن هذا المشروع، ففي البداية راودتني مجموعة أسئلة قمت بطرحها عليهن:

أسئلة حول الدور والأهمية:

- ما هو دورنا في هذا المشروع؟
- ما هي أهمية البحث بتاريخ القدس مع وجود عدد كبير من الكتب التي تتحدث عن تاريخ القدس وحضارتها؟
- ما هي أهمية هذا المشروع بالنسبة لنا كطلاب مقدسيين؟

أسئلة حول الرغبة في المعرفة:

- ما الذي نرغب في معرفته؟
- ما الذي تتوقعن تحقيقه؟ وما الذي يتوجب عمله؟

بدت لي رغبة الباحثات الصغار وتعلقهن بالبحث من أجل التعلم من تجربتهم الخاصة، حين قالت إحدى الطالبات: نريد أن نتعلم عن القدس ما لم يُذكر في الكتب حتى اليوم. عبارة تشير إلى تحرير المعرفة من سلطة المنهاج والنظام التعليمي

التابع للتلقين والمعلومات المعدة مسبقاً، ويتم إسقاطها على الطلاب وفق رؤية المعدين لها أو العاملين على إعدادها ضمن المنهاج أو الكتب التاريخية، كيف يمكن تحريرها والبحث فيها من جديد ضمن رؤية ومنظور تعلم خاص بالباحثات الصغار، فهن يرغبن في البحث في زمن القدس المتجدد، مروراً بتفاصيل الحياة فيها.

حينها راودتني مقولة طرقت مسامعي من مالك الريماوي مدير مسار اللغات والعلوم الاجتماعية في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي عن القدس، وهي لـ جبرا إبراهيم جبرا، وقمت بكتابتها بخط عريض أمام الباحثات الصغار يقول فيها: «القدس ليست مدينة من حجر، بل هي مدينة التوق إلى الله، وهي أكثر مدينة قدَّسها البشر، وهي أكثر مدينة دمّروها».

البحث في مكانة القدس الدينية على مر السنين

انطلاقاً من تلك المقولة، عزمت الباحثات الصغار على تحديد مهمة البحث التالية، التي تمحورت حول مكانة القدس الدينية على مر السنين. على مر السنين لم تكن القدس موضعاً جغرافياً جرت عليه أحداث سجلها التاريخ فحسب، بل هي قيمة رمزية تحتل مكاناً خاصاً في قلب كل ديانة. ينبغي البحث فيها بحيث اعتمدن في بحثهن على المراجع، والتحليلات، ومقابلات رجال الدين. وفيما باشرت الباحثات الصغار البحث في أشهر معالم القدس التاريخية والدينية، قمت بالبحث في أهمية القدس في الديانة الإسلامية، وأهمية القدس للديانة المسيحية، وأهمية القدس للديانة اليهودية، حيث تمكنت الطالبات من جمع المعلومات من رجال الدين الإسلامي والديانة المسيحية والاستماع إلى ارتباطهم بالقدس دينياً، ومكانتها لدى كل ديانة، حيث شكل القرب بين بالمكانة كالقرب بين كنيسة القيامة ومسجد عمر بن الخطاب، قرب عقائدي روحاني وعلاقة الكينونة بالمكان. استمرت الباحثات في البحث بالآراء ووجهات النظر المختلفة بين الديانات الثلاث، بعد جمع المعلومات والاستماع إليها من شخصيات دينية في القدس، قامت الباحثات الصغار بعمل كتيب صغير بعنوان مكانة القدس في الديانات الثلاث، وكان هذا أول نتاج تجربتهم في تحديد ما يردن تعلمه.

كانت هذه بذرة البداية، لكن لم يكن هذا جل ما يطمحن

الباحثات الصغار في الوصول إليه. بدأت الباحثات عبر اللقاءات بتحديد أكثر ما الذي يرغبن في معرفته.

حتى الآن، تمكنت الباحثات من التحرر من سلطة المنهاج، والتحرر من الثقل التاريخي والفهم التقليدي للتاريخ، فالتعلم عبر المشروع ساعد على عكس الرؤية من جغرافيا القدس إلى قداسة الجغرافيا، ومن تاريخ القدس إلى قداسة التاريخ، وقداسة الحياة اليومية وحيويتها. ففي القدس حياة وعوالم تجاوزتها كتب التاريخ وساعدت على طمسها، هي القدس بجميع جوانبها ما ترغب الباحثات في التعلم عنه، الجاليات المقدسية، حارات القدس، مقاهي القدس، الباعة، الصحف، الفن، المشاكل الحياتية والمتغيرات عبر الزمن، ما الذي اختلف على القدس عبر السنين؟

في الخطوة التالية، قررت الباحثات العمل على تحديد البحث في متغيرات البلدة القديمة عبر الزمن، أهي حالة تغيير مستمر وطمس ملامح المكان وهويته؟ أم هي حالة زكام تعاني منها القدس دون مناعة؟

فالقدس بلاد تستنبط سمواً من وحي الماضي، تثير بنا العزة

وتدفعنا للصمود، كيف بها وقد تغيرت ملامحها عبر الزمن وقد تتغير أيضاً بعد زمن آخر جديد، ونحن من شاهدها وشهدها، كيف يمكننا أن نكون شاهدين عليها وعلى تاريخها فيما بعد. حينها بدت فكرة كيف يمكننا أن نقدم القدس مدينتا عبر الزمن المتجدد.

عين على الأدب

بدأت الباحثات الصغار بالعمل ضمن سلسلة مهام بخطوه ثانية سموها «قالت لنا القدس». الاسم مستوحى من عنوان كتاب الكاتب المقدسي محمود شقير برواية «قالت لنا القدس».

طوال فترة العمل على المشروع كان لزاوية الأدب نصيب من اهتمام الطالبات بالبحث حول الكتاب المقدسيين، ومن أبرزهم الكاتب المقدسي محمود شقير. لكنني سأتحدث عن تلك التجربة على حدة.

عمليات البحث

فيما سبق، تضمن تخطيط الباحثات القيام بسلسلة مهام سميناها بـ «قالت لنا القدس». رسمت الباحثات خطوات العمل التي سيقمن بها، من:

- **جمع مصادر**: حيث قامت الباحثات الصغار مسبقاً بجمع المعلومات من كبار السن ومن عايش القدس قديماً وعاصرها ورجال الدين المفكرين ضمن حكايات وشهادات على التاريخ، ومن المقترحات التي قدمنها للعمل عليها كمهمة لاحقة، ألبومات الصور القديمة وتلك النصوص الأدبية التي تتحدث عن تاريخ القدس، أفلام عن القدس، أعمال فنية تتحدث عن القدس، مصادر اقترحتها الطالبات تختلف في رؤيتها وتتحد في مضمونها وجوهرها (القدس).
- **قراءة المصادر**: بعد إتمام عملية جمع المصادر قراءتها معاً والتأمل فيها.
- **مقابلات**: قررت الباحثات الصغار زيارة أحياء البلدة القديمة، وعمل مقابلات مع التجار والأهالي والشخصيات البارزة المتحدثين باسم سكان البلدة القديمة ورجال الدين.
- **تصوير**: بدأ تفكير الباحثات يتجه نحو أي نوع من الصور نحتاج، وما الذي يجب توثيقه بالصورة، وكيف نلتقطها

بطريقة تمكننا من توظيفها لاحقاً، ما هي إمكانية التصوير المتوفرة لدينا؟ تشعبت رؤية الباحثات بالتوثيق بالصور؛ فهل سنصور الحجر، المكان، البشر، ما الذي ينبغي تصويره؟ عدنا سوياً للتعلم عبر المشروع، مهمة التصوير هي أيضاً مجال تعلم تعلمت من خلاله الباحثات ما الذي ينبغي التركيز عليه، ما الذي سيشكل شاهداً على مجريات الزمن. فمن ضمن الصور التي التقطت سابقاً صورة لعدد من ثمار البندورة التالفة، وقد وضعت على جانب الطريق. تحكي الصورة معاناة الفلاحين الذين يقطعون المعابر لبيع محصولهم بالقدس، الأمر الذي يتسبب بتلف جزء منها قبل وصولها للسوق. وصورة أخرى لوجه طفل يظهر من بين مستديرة كعك، وصورة لبائعة خضار على درج باب العامود، وسيدة من راهبات الدير وهن يخضن فصالاً حول ثمن الخضار، فما شهدت عليه الصورة من الفصال على الثمن سوى ابتسامة ود متبادلة بين السيدتين.

- **مقارنات**: هي مقارنة بين التطابق أو التقارب في جمع المصادر والمقابلات والصور معاً، حتى تتمكن الباحثات الصغار من تحليلها.
- **التحليل**: ضمن العودة للمهام السابقة جميعها، ولكي يتم توثيق المعرفة اقترحت الباحثات أن يقمن بعملية تحليل لكل ما يتوصلن إليه عبر المشروع، وبمنطقيته وتوافقه مع حاجتهن، وبما يرغبن في مشاركة الآخرين به عن القدس.
- **التوثيق**: اقترحت الباحثات طرقاً عدة للتوثيق، منها توثيق التجربة، وطباعتها ضمن مجلدات صغيرة، ووضعها في مكتبة المدرسة لتكون متاحة أمام جميع الطالبات. عمل فيلم قصير مدته 15 دقيقة، يتحدث عن القدس عبر الزمن المتجدد، القدس بعيون طلابها. عمل معرض صور في المدرسة، صور انتقائية تحاكي القدس من تصوير الباحثات، ويتم وضع عنوان لكل صورة وفق رؤية الباحثات الصغار.

قامت الباحثات الصغار بتوزيع العمل كمهام مشتركة للبحث، وفي نهاية كل مهمة كانت الباحثات يتناقشن بما جمعن في جعبتهن عن القدس، في أبرز خطواتهم في البحث والشهادة على المكان.

ظهور العين الثالثة أو الطرف الآخر ...

قامت الباحثات الصغار بتوثيق القدس في عين الكاميرا، وذلك بالتقاط صور مختلفة لمظاهر الحياة فيها، لتتحدث عن بساطة تلك المدينة، وأيضاً لغاية رصد التغيرات على المكان، وتوثيق صور الحياة بشكلها اليومي، حيث شكلت بعض الصور سلسلة بناء يظهر عمق الحياة وطرائف العيش في القدس، ما دفعهن للتعمق أكثر في التفكير لمن سنفعل هذا؟ هل من أجل أن نعرفه نحن فقط، أم أن هناك آخر يمكننا مشاركته تجربتنا؟ وكيف سنقدم أنفسنا للآخر؟ ومن سيكون الآخر؟ كانت هناك أطروحة لوجود وتحديد الآخر؛ الشخص أو الجهة التي سنقول لها ما القدس وهن طالبات مدرسة السيدة رقية في غزة؛ وهي مدرسة إناث بمنطقة بيت لاهيا، طالبات من الفئة العمرية نفسها لطالباتي، كانت فكرة جديرة بالاهتمام لتعريفهن على القدس؛ المدينة التي طالما حلمن بزيارتها.

إن لهذا الآخر مكرمات كثيرة ... فوجوده أعطى للمشروع الحيوية، جعل الباحثات أكثر التزاماً، لأن هناك من سيرى، وجعل الباحثات أكثر قرباً للقدس، فمن ستعرض له ما هي القدس هو ليس على صلة بالقدس مثلنا، هو قد يكون فلسطينياً يحبها، لكن لا يمكنه أن يراها إلا من خلالنا.

أصبحت دافعية المشروع لدى باحثاتي الصغار أكثر شغفاً وتحمساً، فهناك من سيرى القدس بعيوننا كما رأيناها.

حين قمنا بعرض الفكرة على مدرسة السيدة رقية، كان هناك أيضاً فكرة أن تقوم طالبات مدرسة السيدة رقية بدورهم بتقديم غزة وتقديمها لنا بعيون طالباتها. كيف يرين غزه، وبما يمكنهن وصفها لنا، وكيف نرى القدس وبما يمكننا وصفها لهن؟ وهل الكلام هنا وحده يكفي؟ فما الذي نرغب في معرفته عن مدينة غزه؟

غزة .... تلك المدينة التي طالما كانت زيارتها حلماً لنا، وما الذي بإمكاننا أن نعرفهن عليه عن القدس المدينة التي يتقن لزيارتها؟

غزة – القدس مشروع تواصل ...

حين أصبح هناك آخر، أصبح الأمر أكثر حماساً وأكثر خصوصية، فنحن نبحث بشيء لنا لنقدمه نحن، ونشهد عليه نحن، وكان الأمر ذاته لطالبات مدرسة السيدة رقية، اللواتي بدأن بتعريفنا على غزه بعيونهن. ولدعم حلقة التواصل بين

طالبات مدرسة السيدة رقية والباحثات الصغار، قمنا بعمل صفحة تتمكن من خلالها طالبات المدرستين من نشر الصور والحكايات عن مدينتهن، الأمر الذي شكل رابط تواصل جيداً بين طالبات المدرستين. فما ترغب الباحثات الصغار في معرفته عن غزه التي طالما شدهن الشوق إليها، هو كل ما يتعلق بالحياة بغزة (تراثهم – عاداتهم – بيوتهم – عائلاتهم – مشاعرهم – معاناتهم – أوجاعهم).

كان للصورة دور كبير في ذلك. في البداية، ركزت طالبات مدرسة السيدة رقية بغزة على الصور التي تظهر الباعة المتجولين من الأطفال والمباني السكنية المهدمة ومولدات الكهرباء، تلك الصور التي باتت تداهم أغلب البيوت في غزة. ومن جانب التواصل الآخر، كانت الباحثات الصغار في القدس يطرحن الصور التي تعكس الحياة اليومية في المدينة، صور أسواق القدس وأبوابها، وصور لكعك القدس، صور لحركة السياحة ولبعض الأماكن الدينية فيها، وصور تجمع بين بائعة خضار مسلمة على درج باب العامود، وراهبة مسيحية من الدير يتبادلن الحديث أثناء الشراء. وصور أخرى لطقوس الأعياد في القدس، وغيرها الكثير من الصور التي تضمنت حكايات تبادلنها الباحثات فيما بينهن، كما أصبح لدى الباحثات من كلا الطرفين دافعية كبيرة لما يمكنهن تبادله ومشاركته فيما بينهن، حيث قامت طالبات مدرسة السيدة رقية بعمل جولة في مدينة غزه، وزيارة أحد المتاحف هناك، وإرفاق الصور والمعلومات والقصص ومشاركتها مع الباحثات الصغار، في الوقت الذي قامت فيه الباحثات الصغار بعمل جولة في أنحاء البلدة القديمة، وأسواق القدس، وصولاً إلى كنيسة القيامة التي توقفت الباحثات فيها عند السؤال عن أهم الطقوس التي يقوم بها المسيحيون عند زيارة الكنيسة. وتطرقت الباحثات أيضاً للسؤال فيما لو كان هنا قصص حدثت في الكنيسة مثل قصص أسطورية، أو تاريخية، وهل حدث أي تغير هيكلي على المبنى، ومن ثم توجهت الباحثات لزيارة مسجد عمر بن الخطاب، والحرم القدسي الشريف، المكان الذي تعرضت فيه الباحثات من قبل الاحتلال لمصادرة كاميرا التصوير، وعدم السماح بإدخالها لساحات المسجد الخارجية، الأمر الذي ترك تساؤلات كثيرة لدى الباحثات، منها: لماذا لم يقم أحد بمنعنا من التصوير داخل كنيسة القيامة؟ و لمَ قام بمنعنا من التصوير داخل الحرم القدسي الشريف؟ لم يكن لديَّ أي جواب سوى: هذا هو الاحتلال.

الرؤية عن كثب

بدأت الباحثات ينظرن إلى الكثير من التفاصيل في القدس بالعين البحثية التي تبحث عن إجابة لجميع التساؤلات حول ما يرغبن في معرفته كطبيعة حياة السكان المقدسين في ظل تواجد اليهود معهم ومشاركتهم حتى في أماكن عيشهم. غادرنا ساحات الحرم القدسي الشريف، وذهبت الباحثات الصغار لزيارة إحدى العائلات التي تسكن في البلدة القديمة قد استولى الاحتلال على جزء من بيتهم ويشاركهم الحياة فيه. كانت للباحثات أسئلة عدة، تحدثن بها لدى العائلة، منها: كيف كانت حياتهم قبل أن يشاركهم الاحتلال مكان سكنهم؟ وما المضايقات التي يتعرضون لها؟

العائلة تتكون من أم أرملة وأبن في العشرين من العمر مصاب بحالة من عدم إدراك الوعي بسبب اعتداء اليهود عليه وضربة على رأسه، ما تسبب له بخلل، وأخت في بداية الثلاثين من العمر، وأخ متزوج ويسكن مع زوجته وأطفاله الأربعة في بيت مكون من غرفتين للمعيشة، أما الجزء الأكبر من المنزل فقد استولى عليه الاحتلال وأسكنوا فيه إحدى الأسر اليهودية.

تلك الأحداث التي طالما سمعت عنها الباحثات الصغار عبر نشرات الأخبار، أو شاهدنها من خلال التلفاز، عايشنها في تلك التجربة عن كثب، شاهدن واستمعن لطبيعة حياة هؤلاء الناس في القدس ومعاناتهم.

التقطت الباحثات مجموعة صور للمكان لتبقى شاهدة على ما أحدثه الاحتلال في حياة تلك العائلة، وعلى ما تتعرض له الكثير من العائلات في البلدة القديمة خاصة، والقدس عامة.

غادرت الباحثات المكان، وفي جعبتهن الكثير من الحكايات التي بقيت عالقة في مخيلتهن حتى اليوم. أثناء مغادرتنا أسواق البلدة القديمة من باب خان الزيت، وسوق العطارين، وسوق القطانين، وطريق الواد، والمرحلة الخامسة بطريق درب الآلام، كانت للباحثات الصغار وقفة مع تجار البلدة القديمة البائعين المتواجدين يومياً داخل أسوار البلدة القديمة، والشاهدين الأوائل على كل ما يحدث داخل هذه الأسوار. تحدثت الباحثات مع البائعين عن ذكرياتهم بالبلدة القديمة، وعن المشاكل التي تواجه تجارتهم داخل أسوار القدس، وعن ما شهدوه وما تعرضت له القدس وكانوا شاهدين

عليه. تحدث التجار عن حادثة الحريق الذي نشب بالحرم القدسي الشريف، وكيف قام التجار بمحاولة إطفاء الحريق، وعن خدمة الإطفاء التي تأخرت متعمدة بالوصول للمكان، وعن الكثير من محاولات التهويد التي تحدث بالبلدة القديمة، مؤخراً، كالحفريات التي تحدث تحت المسجد الأقصى، وعن سماعهم الدائم لأصوات أدوات الحفر، ومشاهدتهم للأضرار التي حدثت في العديد من المنازل بسبب الحفريات. تمكنت الباحثات الصغار من مشاهدة الكثير من الصور التي حدثهن عنها التجار، وعن الضرر الذي يسببه لهم ذهاب السكان العرب للشراء من المحال التجارية الإسرائيلية بالمنطقة العربية.

للتعلم مجالات أخرى ..

عادت الباحثات الصغار من جولتهن البحثية داخل أسوار القدس، وهن يحملن الكثير من الحكايا الممزوجة بمشاعر الألم والمعاناة التي يتعرض لها المقدسيون من قبل الاحتلال كل يوم. لم يكن لقاء واحد كافياً لتتمكن الباحثات من الحديث وتوثيق كل ما شاهدنه وشهدن عليه، فهناك أمور حياتية عديدة لا يمكن تعلمها عبر المنهاج، ولكن البحث في تلك الأمور ومشاهدتها عن كثب، جعلت من الباحثات الصغار منتجات لما يردن تعلمه، وما يرغبن في مشاركته مع آخرين. فقد كان لتلك التجربة وقعها الإيجابي بالتفكير كيف يمكننا أن نوظف كل ما قمنا بجمعه من مصادر في مصدر واحد يوثق تلك التجربة. عندها بادرت الباحثات الصغار بطرح فكرة عمل فيلم قصير، يعرض نتاج تلك التجربة. قامت الطالبات بعمل الفيلم، وكان لديهن هنا متسع آخر للتعلم غير المنهج لاستخدام الكمبيوتر، والعمل على قصاصات الصور، وبناء مشهد حي كامل. أعدت الباحثات الفيلم، وأطلقن عليه عنوان: «قالت لنا القدس»، وقمن بإرساله لطالبات مدرسة السيدة رقية لمشاركتهن تلك التجربة.

.. الحلم جسر للتواصل ...

ولأن لا شيء هنا يشبه ما هو هناك، ولأن الحلم حق مشروع يأتي بأمل جديد، كان لا بد من بنك أحلام للباحثات الصغار (أحلام شخصية)، بحيث تقوم كل باحثة في القدس بتحقيق حلم طالبة من طالبات مدرسة السيدة رقية في غزة، وأخذ صور شاهدة على تحقيق الحلم، وإرسالها لها على أمل أن يأتي يوم تتمكن من الوصول للقدس وتحقيق ذاك الحلم مره أخرى، وأيضاً تقوم كل طالبة في غزة بتحقيق حلم لإحدى الباحثات الصغار في القدس، وبجمع جميع الأحلام في بنك أحلام الباحثات الصغار.

الأدب شكل آخر للتعلم

ولأن لكل نهاية بداية، ولأن الأحلام لم تُجنَ ثمارها كلها، كان لهذه النهاية التي لم تنته بعد، ولادة فكرة جديدة، ولأن القدس فيها ما فيها، ولأنها قالت لنا القدس، ولأن القدس هي الزمن المتجدد، ولأنه كان دائماً رمزاً ومرجعاً فكرياً للباحثات الصغار، ولأنهن استطعن رؤية القدس عبر كتاباته، كان لا بد لنا من الوقوف مطولاً عند الكاتب المقدسي محمود شقير.

كانت البداية من رواية **أحلام الفتى النحيل** للكاتب محمود شقير، حين بدأت الطالبات بقراءة تلك الرواية المرتبطة بوقائعها بالقدس والبلدة القديمة، فلم تكن إصدارات شقير بالكتب العادية، فقد كانت مرتبطة ارتباطاً مباشراً بموضوع بحث الطالبات، حين بدأ مركز القطان للبحث والتطوير التربوي بتزويدنا بإصدارات الكاتب المقدسي محمود شقير، الأمر الذي سهّل على الباحثات قراءة تلك الكتب، ورؤية القدس بين سطورها، كما اقتبسن بعض كتابات شقير عن القدس، وقمن بتزيين جدران مكتبة المدرسة بها، استعدادا لافتتاح مكتبة المدرسة، بحضور هذا الصرح الفكري المقدسي.

لم تعمل الباحثات طوال الوقت للوصول إلى نقطة نهاية. فما يبحثن به هو علاقة حياتية بين الإنسان والمكان، علاقة مستمرة لا انتهاء فيها، فكل لقاء، وكل يوم، وكل جولة، هي بداية جديدة للتوقف والبحث والمشاركة في ما تتوصل إليه كل من تمرات القدس وحناء غزة.

مدرسة راس العامود الشاملة